القلب المنسى

مرت الأيام على أسرة الصول عبد الخالق ورفرفت عليها حمائل السلام والأمن والآمال. . وبورسعيد ومدن القناة استعادت حريتها وطهرت أرضها من دنس المعتدين. . وانطلقت أغاريد السلام والحب والبناء لتصلح ما أفسدته الأيدى الـهدامة. . وامتلأت القلوب بالأمن والسكينة قريرة العين هادئة البال. . إلا من ذكريات حزينة تنام فى أعماقها يوقظها حادث عابر أو حديث طارئ فتعربد بأصحابها وتلـهب مشاعرهم بنار الحنين، ولكنها سرعان ما تنطفئ وتعاود الحياة سيرتها مرة أخرى دون أن يصدّها عائق.

وعاشت زينب مع زوجها فى سعادة تنعم بحب أمها وبرّ أخويها، وملأ حياتها طفل وليد ربط ما بينها وبين زوجها برباط قوى متين أحست بعده بنعمة الاستقرار بعد حياة قلقة يغلفها الثكل والحزن. . ولم ينس أحمد أبدًا زيارة أمه وشقيقته كلما سنحت لـه الفرصة وخلال عودته من سيناء إلى السويس فى مهمة أو إجازة.

ولاحظ أحمد أثناء عملـه فى سيناء أنها لم تعد كمًّا مهملاً أو قصة نقرؤها فى سطور التاريخ وكتب الدين. . بل بدأت تدبّ فيها حياة عسكرية على نحو ما وإن كان باهتًا. . فأنشئت مطارات جديدة، وبنيت وحدات عسكرية، وأعيد ترميم ما أفسدته المعارك السابقة، وصارت موانئ سيناء قواعد عسكرية بحرية يتم فيها التدريب والتخطيط. . وكان لأحمد مع زملائه نصيب كبير فى هذا التدريب والإرشاد. بيد أنه يحسّ بشعوره الوطنى الغيور على أرضه أن سيناء لم تأخذ ما تستحقه من الرعاية وحسن الاهتمام. . فهى الباب الشرقى لمصر منذ عهد الفراعنة. . وقد شاهد فى تجوالـه بها بعض الحصون الفرعونية التى

صمدت أمام عوادى الزمن . . ولا شك أنها صممت وبنيت فى عهدهم لتكون الدرع الأول الذى يحمى مصر من الخطر الشرقى . . وبقيت شاهداً حيًّا يذكّرنا بأمجادنا القديمة، ودرسًا نافعًا نستمد منه العبرة . . فما بالنا نحن أهملنا أكبر جزء من مصر فى آسيا ولم نَعُـدْ نعرف منه غير بعض الطرق الملتوية التائهة فى رمال الصحراء، وأشتاتًا من البدو مبعثرين خلف الصخور والتلال، ومدنًا منكمشة على نفسها يكاد البلى أن يطمسها ولا يبقى لـها أثراً؟!

ولو كانت لـه سلطة القرار لجعل منها كلـها مرتعًا ومسرحًا لجميع المصريين حتى تعيش فى وجدانهم وواقعهم فلا تغيب عن عيونهم أبداً .

إنه يشاهد فى هذه الأيام بعض الخبراء الروس يتجولون على شواطئها ليمهدوا لقاعدة تبنى أو معسكر ينشأ أو منصات لإطلاق الصواريخ . . وكلـها أعمال ظاهرة للعيان يستطيع أن يشاهدها ويستوعبها كل عابر سبيل من هنا أو من هناك حيث يتربص العدو الصهيونى فى يقظة . . ولم يطمئن أحمد لـهؤلاء الخبراء أبداً . . فحركاتهم وسكناتهم لا توحى بإخلاصهم وانتمائهم . . وكثيراً ما بنيت أشياء ثم هدمت بعد ذلك بقليل بأيد مجهولة . . وتدريباتهم البحرية لم تَعُدْ خافية على أحد . . وكأننا فى مسرح مكشوف يراه جميع المشاهدين .

ومدينة العريش أجمل مدن سيناء هى المقر الدائم لأحمد ينطلق منها صباحًا أو مساء حسب طبيعة العمل وظروفه .

وهو يحب تلك المدينة التى تنام بيوتها المتواضعة على شاطئ البحر فى تثاقل وإعياء كأنها سئمت الحياة فأخلدت للسكون، لا توقظها سوى هبة نسيم رطبة أو صوت موجة عابثة تذكّرها بأن الحياة ما زالت فيها بقية من أمل ورجاء . . ومن خلفها تقف صفوف النخيل منتصبة شامخة كحارس أمين يحميها من

عوادى الزمن . . وفى هذه المدينة عاش والده الفترة الأخيرة من حياته وقدم روحه فداء لوطنه على أرضها أو بالقرب منها . . وحدثه بعض أبنائها أنهم شاهدوا العشرات من أبناء القوات المسلحة والمتطوعين يُقتلون ويذبحون فى تلك المنطقة . . بأيدى العصابات الصهيونية التى فاجأتهم وهم عزّل من السلاح . . وفى بعض الليالى المقمرة يعود من سفينته متأخراً أو تدفعه غريزة خفيه للتجول بعيداً عنها ، فيشاهد بقايا قبور لعبت بها الرياح والأمطار وتقلبات الجو فلم تبق منها إلا رسوم شاحبة يكاد البلى أن يخفيها ويحيلـها أثراً بعد عين . . وربما حدثته نفسه أحياناً بالوقوف على أطلالـها . . أليس من الجائز أن تكون بقايا والده ترقد تحت هذا التراب . . ولكنه سرعان ما ينصرف ويعود أدراجه إلى داخل العريش فى صمتها الـهادئ الوقور . . ليأخذ قسطاً من الراحة استعداداً ليوم جديد وعمل جديد . . ولم تكن جولاته تلك تخلو من فائدة . . فعلى مرمى البصر يشاهد حركات مريبة وتحركات غامضة كأشباح من الجن تتراقص فى ظلمة الليل ، ولا ينكر أبداً أنه أحس بالخوف مرة ومرات ثم واتته الشجاعة أن يتبين حقيقة ما يجرى ، فتأكد من وجود أفراد يتنقلون من مكان يخفيهم الظلام الدامس والفراغ الموحش .

إن شيئاً خفيّاً يجرى على أرض سيناء وقريب من حدود إسرائيل ، وهناك أشخاص يروحون ويجيئون فى غفلة من الأعين .

ترى مَن هم؟ وماذا يفعلون؟ وأى أمر يخططون لـه؟ لابد أنها أمور خطيرة ما دامت فى صمت وحذر وخفاء .

ولم يعد لدى أحمد شك فى أن الأيام القادمة ستشهد أحداثاً مروعة وستكون سيناء مسرحاً لـها . . ومجالاً للصراع فيها .

إن إسرائيل لم تَنَمْ عن هزيمتها وخيبتها فى العدوان الثلاثى، والاستعمار يتخذ منها مخلبًا لينشب من خلالـها أظفاره فى مصر وبقية البلاد العربية. . وإذا انهارت مصر تداعت بعدها بقية البلاد العربية فى سهولة ويسر، وأصبحت لقمة سائغة يلتهمونها فى أى وقت يريدون.

وهمس بمعلوماته تلك لبعض قادته فلم يُعرْها أكثرهم التفاتًا. . فنشوة النصر فى بورسعيد مازالت تخدرهم وتجعلـهم َيعيشون حلمًا طويلاً جميلاً لا يريدون اليقظة منه. . والاستعداد لما هو آت فى القريب أو البعيد.

ويسمع من بعضهم أن مصر تملك أكبر قوة ضاربة فى الشرق تخيف بها الجميع، فينظر أمامه فلا يجد ما يصدق هذا القول.

وأفلحت روسيا فى إذكاء هذا الشعور بصفقات السلاح والخبراء والمدربين. . وفرشت لنا طريق النصر وعبّدته كأنها وضعت على أعيننا غطاء لا نتبين من خلالـه مجاهل هذا الطريق ومخاطره.

صدقنا فى ثقة تامة أنها تمدنا وتؤازرنا ولن ينالنا أحد بسوء ما دامت معنا.

هكذا كان شعور بعض القادة والمسئولين، إلا أن الحقيقة لم تكن خافية على كثير من القادة أيضًا، ولكنهم لا يملكون من الأمر شيئًا.

وذهب أحمد لزيارة والدته فى السويس كما تعوّد أن يزورها من قبل، وطلبت منه أن يأخذها معه لمشاهدة مدينة العريش التى كان والده يعمل بها قبل استشهاده، وألحّت عليه فى الذهاب هذه المرة.

ولم يتردد فى الاستجابة لما تريد. . فطالما عرض عليها أن تأتى لزيارته وكانت ترفض، وإن كان فى الواقع يخشى من إثارة مشاعرها وذكرياتها القديمة، التى يحاول هو وإخوته أن يبعدوها عن اجترارها مرة أخرى؛ حفاظًا على صحتها التى مالت إلى الضعف فى السنوات الأخيرة.

وسافر أحمد وبصحبته والدته التى أقامت فى العريش يومًا أو بعض يوم ريثما استراحت من السفر وشاهدت معالم المدينة . . ثم سألته عن رجل من أهل العريش يسمى حماد سليمان سلام . . كان صديقًا لوالده وكثيراً ما زارهم فى منزلـهم بالسويس وتعرفه ويعرفها جيداً .

وحاول أحمد أن يصرفها عن هذا المقابلة إلا أنها أصرّت عليها وتمسكت بها . . فهو يعرف مبعث هذا الاصرار والسبب الداعى لـها .

ولم يكن عسيراً العثور على الرجل والوصول إليه فالمدينة صغيرة وجميع سكانها يعرف بعضهم بعضـاً .

وحضر الرجل فى اليوم التالى تعلوه الدهشة عن سبب استدعائه لقوم لا يعرفهم ولم يرتكب ما يجعلـه أهلاً لـهذا الحضور .

وأقبل يتوكـأ على عصاه فى ضعف ووهن يحمل على كتفيه أعباء سنوات طويلة من الزمن . . لم يبق منه غير هيكل فان يدبّ على الأرض . . وعرفت الأم ملامحه التى أخفت الأيام كثيراً من سيماها . . فنادته باسمه . . وتأمل وجهها طويلاً فم تسعفه الذاكرة بمعرفتها . . أجلسته فى رفق . . وأخذت تسرد عليه أخبار الصول عبد الخالق وزياراته المتكررة لـهم فى السويس . . وصداقته القديمة لزوجها . . ورويداً رويداً استرد الرجل ذاكرته وكأنه أفاق من سبات طويل وبعث من زمن غابر . . وقام متعثراً ليصافح الأم مرة أخرى ويشدّ على يدها فى ود وكأنه يكفر عن ذنب كبير ارتكبه بنسيانه لـها ولزوجها . . ولعن الظروف القاسية التى أنسته كل شيء حتى أحب الناس إلى قلبه . . وطفرت من عينى الرجل دموع قليلة ذابت داخل لحيته الكثيفة . . وهى على قلتها دليل صادق على إخلاص الرجل ووفائه . . وقال فى صـوت متقـطع مرتعـش كأنه

آت من غور سحيق: رحم الله الصول عبد الخالق.. لقد كان نموذجًا فريدًا فى كلِّ شيء، وبموته فقدتُ أعز إنسان لى وأخلص رجل عرفته.

ولم تتركه يكمل حديثه.. بل أسرعت قائلة: ماذا تعرف عن موته يا عم الشيخ حماد؟ وأين قبره إن كان لـه قبر؟ وكيف مات؟.

فرد الشيخ مقاطعًا: مهلاً يا ابنتى ماذا يجدى الحديث الآن؟ لقد مضى كل شيء.. وأصبح الجميع فى ذمة الله.. والحديث عنهم يثير الشجن والألم، ولك فى أبنائك خير العوض.. لقد عاش زوجك رجلاً.. ومات بطلاً.. وفى هذا أصدق عزاء لك.

فقالت: نعم.. فقط أريد أن تروى لى شيئًا عن أيامه الأخيرة. إن كنت تعرف.. حتى تكون سلوانا لى فيما بقى من عمر.

ونظر حماد إلى أحمد.. كأنما يأخذ رأيه فيما يريد أن يقول.. فهز رأسه دلالة الموافقة.

وسرح الشيخ ببصره بعيداً يستجمع شتات الحديث الضائع فى رمال الزمن ليرويه للزوجة والابن.

وقال فى نبرات أقرب ما تكون للنحيب: أذكر تمامًا ذلك اليوم القاسى الذى لم أعرف لـه مثيلاً من قبل فى حياتى: كنت أعمل فى قوات الحرس الوطنى تحت قيادة اللواء 28.. وعند مطار العريش قابلتنا كتيبة من العصابات اليهودية تمتطى سيارات مجنزرة.. كنا عشرين فردًا أكثرهم من العاملين فى القوات المسلحة، وثلاثة أو أربعة لا يرتدون الزى العسكرى.. وأنا واحد منهم.. وكان والدك من المجموعة العسكرية.. إلا أنهم لم يخرجوا للقتال.. بل كانوا عائدين من مهمة.

وأوقفتنا العصابة اليهودية للتفتيش ونحتنى جانبًا ومعى اثنان وأمرت بقية المجموعة أن تنظر إلى الخلف وكان أول الرافضين والدك فى شجاعة نادرة وآثر أن يقابلـهم بوجهه ولا يولـهم ظهره. . وأخرج والدك مسدسه من جيبه فى سرعة البرق وقتل ثلاثة ضباط وجندى ثم استشهد بعد ذلك. . وفى سرعة ووحشية انهال الرصاص من داخل سيارات الجيب ليحصد المجموعة بأكملـها. . وشاهدت والدك ينهار على الأرض والمسدس فى يده اليمنى. . وأسرعت إليه بعد انصراف الإسرائيليين فوجدته يلفظ أنفاسه الأخيرة. . وبيدى هاتين أغمضت عينيه ولقنته الشهادة الأخيرة.

وهنا سألـه أحمد: ولماذا أمروهم بالنظر إلى الخلف؟ فقال الشيخ: إنهم سيقتلونهم فى جميع الأحوال. . ولكنهم لا يعرفون أن عقيدة المسلم تدعوه ليقتل فى المواجهة ليدخل الجنة كشهيد، ولا يقتل من الخلف. . فهذا جبن وفرار يحرمانه الثواب، وهم لا يريدون لـهم الحياة فى الدنيا ولا الجنة فى الآخرة.

و بعد ذلك جمعتُ بعض أقاربى وقمنا بحفر قبر جماعى وارياهم فيه كما استشهدوا. . فالشهيد لا يغسّل ولا يكفن. وتقديراً لمكانة الشهيد عبدالخالق فى نفسى وضعته فى قبر مستقل تحت جزع شجرة كانت وارفة. . فإنه كان دائمًا سمحًا كريمًا معطاءً قبل أن يجود بروحه الطاهرة. . وكانت هذه الشجرة منذ زمان بعيد شجرة رمان.

وقاد الشيخ الزوجة والابن إلى المكان الذى دفن فيه الشهيد على مسافة غير بعيدة من العريش. . فقفوا على أثر باهت لا يميزه عن غيره إلا بقية ضئيلة من جذع شجرة أوشكت أن تمحو سطورها الأيام وحجر كبير قال عنه الشيخ إنه

وضعه ليكون شاهداً أو علامة . . ووقفت الزوجة لحظات جمعت العمر كله وتركت العنان لبقية من دموع حبستها فى صدرها سنوات طوال . . كانت دموعًا غاليه ضنّت بها أن تنزل إلا لتروى قبر زوجها الشهيد أو يمتصها هذا الرمل الذى ضم جسده فى يوم حالم حين لم يجد بجواره قريبًا أو حبيبًا .

ولا تدرى إن كانت وقفتها طالت أم قصرت . . ودموعها تجمدت أم ظلت منهمرة . . وعيناها تحولت عن هذه البقعة الغالية من الأرض أم تعلقت بها .

وإنما الذى أدركته حقـًا أن الشيخ أجهده الوقوف فألقى بنفسه على الأرض بجوار عصاه، والشمس مالت للاحتضار فى الأفق الغربى مؤذنة بالنهاية . . ورياح خفيفة تحمل الرمال فتلقيها هنا أو هناك . وأخذ أحمد يد أمه فى رفق طالبًا منها العودة . . فاستجابت لـه فى استسلام . . وقبل أن يدخلا المنزل قالت لـه : أريد أن أعود فى الغد إلى السويس . . لقد حققت أملاً عشتُ أبحث عنه سنوات حتى عثرت عليه . . وكنت واثقة من العثور عليه مهما بعدت الأيام .